المجاهد الرمز الحاج لخضر نموذج عملي لاستمرار قيم الثورة

د/ جمال سعادنه

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة باتنة1 الحاج لخضر

مقدمة:

قبل أن ننظر إلى التاريخ على أنه مدونة تقيد ما رصده المؤرخون من الحوادث الخوالي لتقرأ وتكون ميدان بحث ودراسة واستخلاص للعبر، يجب أولا أن ننظر إلى التاريخ على أنه حركة تنجز، وواقع يصاغ ويصنع، ومستقبل يرسم ويحدد، لذلك قبل أي احتفاء بمن يعتني بالتاريخ جمعا وتحقيقا وتصنيفا وتدوينا ودراسة، وقبل الاعتراف أيضا بما للمؤرخين من فضل كبير ودور عظيم في حفظ الذاكرة ووضع المادة التاريخية في متناول قرائها ودارسيها، فقبل ذلك كله يجب الاحتفاء أولا بمن صنع التاريخ؛ لأن فضله أكبر؛ على المؤرخ، وعلى قراء التاريخ ودارسيه، بل على كل الأجيال التي تستفيد من المآلات الإيجابية لحركة التاريخ، التي هي في واقع الأمر ثمرة جهد سابق، وتضحية سابقة قدمها صناع التاريخ، فالخطأ الذي وقع ويقع فيه بعضنا هو ربط التاريخ بمن يكتبه لا بمن يصنعه، فيصير المؤرخ هو البطل وصاحب الفضل الأكبر، مع أننا لا ننكر فضله متى كان أمينا وموضوعيا ومجتهدا في القيام برسالته النبيلة بموضوعية وحيادية.

فالذي نخشاه أن تصبح الوقائع التي ترويها كتب التاريخ شبيهة بالعمل القصصي الذي تحضر فيه الذاتية في بعدها السلبي، فيُقْرأ بهدف التسلي وتحقيق المتعة الفنية، ومن ثم يصبح حضور صانعي التاريخ في المدونات التاريخية حضورا مرتبطا بالمتخيل السردي في العرض القصصي، فيكون المؤرخ مثل القاص، بينما يصير صناع التاريخ مجرد أبطال في تلك القصة؛ أي يصبح المؤرخ أكثر واقعية وجاذبية من التاريخ ذاته.

من هذا المنطلق أفضل استهلال حديثي حول شخصية المجاهد الحاج لخضر بوصفها شخصية أسهمت في صناعة التاريخ الجزائري الحديث من خلال هذه المداخلة الموسومة بـ : **المجاهد الرمز الحاج لخصر نموذج عملي لاستمرار قيم الثورة.**

أولا: المجاهد الحاج لخضر ومحطات الكفاح والنضال:

يمكن تقسيم المسيرة الجهادية للفقيد إلى ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى:

تتعلق بنضاله في صفوف الحركة الوطنية وهي مرحلة الإعداد لتفجير الثورة؛ بتهيئة شروط نجاح الثورة المتمثلة أساسا:

1 في زرع الوعي السياسي الذي يفضي بصاحبه إلى استيعاب مبررات الثورة.
2 تهيئة البيئة الاجتماعية الحاضنة للثورة .
3 صناعة الوجدان وصياغة العقل الثوري الذي يتبنى الثورة كخيار استراتيجي، مع الاستعداد سلفا لتحمل ضريبة الثورة بكل تبعاتها المكلفة.
4 تحرير الأمة الجزائرية من حالة الإحباط، وتمكينها من استرجاع الثقة بالذات والأمل في تحقيق النصر، والتحرر من هيمنة المحتل.

وقد كانت بداية النضال بالنسبة إلى المجاهد الحاج لخضر في هذه المرحلة أثناء إقامته بفرنسا التي سافر إليها بحثا عن العمل، وهناك التقى ببعض مناضلي حزب الشعب الذين كانوا يتخذون من العمل النقابي ذريعة للاتصال بالعمال الجزائريين وبث الوعي السياسي في صفوفهم، ويكفي أن تكون بداية النضال من قلب الأراضي الفرنسية دليلا على جرأة الحاج لخضر وشجاعته وحماسته ووطنيته.

وبعد ثلاث سنوات من الإقامة بفرنسا عاد إلى أرض الوطن فأسس أول خلية سرية بإشرافه في مدينة عين التوتة ثم بمدينة باتنة، كان ذلك من سنة 1939 إلى سنة 1941 وبعد هذا التاريخ كان اللقاء مع الشهيد مصطفى بن بولعيد، وتسطير برنامج عمل جديد أكثر تنظيما وامتدادا.

المرحلة الثانية:

هي مرحلة الإسهام في تفجير الثورة، مع الحضور الفاعل في تأطيرها وقيادتها، والعمل على تحقيق أهدافها والحفاظ على مبادئها، وقد حرص الحاج لخضر في هذه المرحلة على أمرين أساسين.

أولهما: أن يكون قائدا ميدانيا يسجل حضوره الشخصي في المعارك، وإن لم يكن حاضرا فإنه يخطط لها، ويحدد أهدافها.

ثانيهما: حرصه على وحدة الصف، ونبذ الخلافات التي لا شك أنها تُضْعِف الثورة وتستنزف طاقة الثوار، ولعل هذا الجهد برز بشكل واضح في سعيه الجاد إلى وأد الفتنة عقب استشهاد البطل مصطفى بن بولعيد، وهكذا كان شأنه دوما مع كل خلاف حاد يكون قد نشب بين قادة الثورة آنئذ، وفي هذ الصدد نورد شهادة للمجاهد بالقاسم بوزيد مؤداها: أن المجاهد الحاج لخضر كان يترفع وينبذ كل الخلافات والاصطفافات السياسية التي من شأنها أن تُشْغل الثوار عن عدوهم الحقيقي، وعن قضيتهم الجوهرية وهدفهم المقدس المتمثل في

تحرير الوطن؛ مؤكدا في شهادته هذه أن المجاهد الحاج لخضر و في إحدى كلماته الحماسية أمام جمع من المجاهدين ذكَّرهم أن العدو الوحيد والأوحد بالنسبة إليه هي فرنسا، وكل الجزائريين مهما اختلفوا هم إخوانه، لذلك خاطب هذا الجمع من المجاهدين قائلا: فلنتوحد لطرد فرنسا من بلدنا، وبعد الاستقلال ثقوا أنني لن أسعى خلف المناصب.

المرحلة الثالثة:

هي مرحلة الاستقلال، وبداية الجهاد الأكبر، الذي هو في واقع الأمر امتحان للشعب ولقادة الثورة ولكافة المجاهدين، لمعرفة مدى تمسكهم بقيم الثورة والثبات على العهد، وبما أن موضوع هذه المداخلة يخص المجاهد الحاج لخضر، سأسعى لأن أوضح من خلال سيرته ومواقفه بعد الاستقلال أنه من الشخصيات التي يمكن عدها مصداقا عمليا لاستمرار قيم الثورة.

ثانيا: استمرار قيم الثورة في مسيرة الجهاد الأكبر:

بداية لابد من الإشارة إلى أن الثورة الحقيقية هي تلك التي تمتلك مبررات موضوعية لقيامها، ومن ثم التسليم بعدالة القضية، وهي تلك التي تستند إلى أطروحة ومشروع يتبنى الأفكار و القيم الإنسانية والتربوية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي تستجيب لتطلعات الثوار، وتلامس واقعهم، وعليه يمكن القول: إن الدلالة المتكاملة لمفهوم الثورة تتحقق على مرحلتين؛ مرحلة الثورة على الوضع القائم، وتقوم على عملية الهدم لأركانه والإطاحة بدعائمه ورموزه ومظاهره، وهذا جزء من مفهوم الثورة، وليس المفهوم كله، لذلك ومن أجل استكمال الفعل الثوري على مستوى المفهوم والإنجاز لابد من مرحلة موالية تجسد أطروحة الثورة ومشروعها، وتمكن لقيمها وشعاراتها؛ وهي مرحلة تحقق دلالة البناء للوضع الجديد بعد دلالة الهدم للوضع القديم، وعليه أرى أن المجاهد الحاج لخضر كإحدى الحالات الفردية حاول أن يحقق الثورة في بعديها المذكورين آنفا، وهما الهدم (الإطاحة بالمحتل والتخلص من الواقع القديم) ثم البناء (بناء الجزائر المستقلة وتشكيل الواقع الجديد) لكن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال أن ننظر إلى الرجل كقائد دولة يصنع القرار، ويدير شؤون البلاد ويتحكم في الوضع، فلو نقيم مساره بهذه الخلفية نكون قد حمَّلناه ما لا يطيق، بل سنحمله زورا أوزار غيره وأخطاءهم وخطاياهم. وعليه يمكن أن نورد جهود الفقيد المعبرة عن تبنيه المستمر لقيم الثورة بعد الاستقلال في هذه النقاط المستخلصة من مواقفه الشخصية وجهوده الفردية وإنجازاته بعد الاستقلال:

1) **موقفه الثابت من فرنسا:**

الحاج لخضر ـ رحمة الله عليه ـ لم تتغير نظرته إلى فرنسا، ولم يتغير موقفه منها بعد الاستقلال، فهي بالنسبة إليه العدو الذي لا يؤتمن جانبه، لذلك كان حريصا كلما أتيحت له

فرصة مخاطبة الشباب أن يذكرهم بجرائم فرنسا وحقدها على الجزائريين، وكأني به كان يتحسس أن فرنسا تسعى لأن تعيد إنتاج صورتها في الضمير والوعي الجزائري بما ينسي الجزائريين في جرائمها، ورهانها – طبعا - كان ولا يزال قائما على أبناء الاستقلال الذين لم يعيشوا تجربة الاحتلال، ولم يتجرعوا مرارة ظلمه، فهم في أحسن الأحوال يكتفون بالمطالعات البسيطة لما ترويه كتب التاريخ، أو يرويه الآباء، أو مشاهدة بعض الأفلام و حضور الأنشطة المناسباتية (هذا إن تكرموا بالحضور) ومن ثم التفاعل معها لا يتعدى حدود كونها وقائع تاريخية، وعليه درجة تفاعلهم معها لن يكون في مستوى ودرجة التفاعل الذي نجده لدى من عاش التجربة وكابدها، كما هو حال المجاهد الحاج لخضر الذي يكفينا أن نذكر بموقفه الثابت من فرنسا والذي كان يجدده في كل مناسبة، ولعل أهمها حين أكد موقفه ذاك وهو طريح الفراش يعاني وطأة المرض، حيث رفض مقتَرَحا لمعالجته بفرنسا وقال: إن الفرنسيين الذين لم يتمكنوا من أن يلمسوا جسدي إبان الاحتلال، لن أمَكِّنَهم من ذلك بعد الاستقلال.

2) التواضع ونكران الذات:

اختيار طريق الجهاد في سبيل الله والوطن، هو اختيار لطريق التضحية والبذل والعطاء، هو اختيار لفلسفة العزة والحياة التي أوجزها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - في قوله: " الحياة في موتكم قاهرين، والموت في حياتكم مقهورين " فالمجاهد الحاج لخضر سار مع غيره من أبطال الجزائر على هذا الدرب إلى أن تحقق النصر، وبعد الاستقلال واصل حياته بذهنية المضحي المدْبِر عن أهواء النفس وحظوظها، لا بذهنية المشتهي الذي يبحث عن المقابل بِمَنٍّ وأذى، فالرجل لم يستيقظ فيه حب الحياة والإقبال على حطام الدنيا بنهم يناقض موقف الانصراف عنها، واختيار الشهادة بديلا عنها إبان الجهاد الأصغر.

فالماضي الثوري والجهادي للحاج لخضر كقائد من قادة الثورة كان يكفيه لأن يتخذ منه ذريعة، فيحيط نفسه بأبراج عاجية تجعله ينأى عن واقع الشعب وظروف المجتمع، وكان ذلك يكفيه أيضا لأن يسعى إلى استثمار هذا الماضي من أجل تحقيق مكاسب وامتيازات شخصية، لكن أخلاق الرجل جعلته يأبى أن يكون طالب دنيا وسلطان وجاه، فوجاهته جاءته بالعرض لا بالطلب، ومنحه الله إياها، ثم الناس؛ لأنه عاش فيهم ومعهم وبينهم، يتقاسم وإياهم حياة البساطة بعفويته وتلقائيته وتواضعه، يشاركهم همومهم، ويتكفل بانشغالاتهم، ويصلح ذات بينهم، ينصر الضعيف، ويعين الفقير، ويواسي الحزين بكل تواضع وصدق وإخلاص.

3) دعمه اللامحدود للحركة الثقافية والعلمية:

تحررت الحقول، وكان لزاما أن تُسْتَكمَل مسيرة التحرر بتحرير العقول وتنويرها، وتحرير المشاعر وتطهيرها، حتى يعود الشعب إلى ذاته وهويته وانتمائه الحضاري، لذلك كان للمجاهد الحاج لخضر حضور لافت في كل المساعي والجهود الجادة التي صبت في هذا الاتجاه ومن ذلك:

أ ـ مشاركته الفاعلة في أعمال اللجنة التي تأسست مباشرة بعد الاستقلال بهدف فتح المدارس في كل قرية من قرى مدينة باتنة إلى جانب الشيخ عمر دردور والسيد عمار نايلي.

ب ـ الإسهام في تأسيس المعهد الإسلامي، والعمل على جلب الأساتذة العرب من خارج الوطن.

ج ـ جهده الأساس والمتميز في بناء مفخرة الأوراس والجزائر؛ أعني قلعة الإسلام، المتمثلة في مسجد أول نوفمبر، وفي المعهد العالي للعلوم الإسلامية (كلية الإسلامية حاليا) حيث بذل وعلى كبر سنه الجهد والوقت، وأنفق المال، ووظف ما كان له من نفوذ وعلاقات من أجل إنجاز هذا المشروع الضخم المتميز برمزية التسمية ورمزية المكان، فضلا عن الدور الرسالي المنوط به؛ فالتسمية هي أول نوفمبر تعبيرا عن أصالة الثورة وهويتها وأهدافها ومضامينها، أما المكان فقد كان مطارا تقلع منه طائرات العدو لتدمير الجزائر وإبادة الجزائريين، فلِمَ لا يكون اليوم قلعة يُقْلع منها صوت التكبير والتوحيد؟ لِمَ لا يكون حِصْنا لشخصيتنا وهويتنا؟ هكذا كان تبرير الحاج لخضر ـ رحمة الله عليه ـ لاختيار المكان واختيار التسمية، وهو تبرير يكشف عما كان يتمتع به الرجل من وعي وبصيرة، ورؤية استراتجية ثاقبة.

وبما أن الحديث عن احتضانه وتبنيه لمشروع قلعة الإسلام، أود في هذا المقام أن أشير إلى موقفين يؤكدان معدن الرجل في أرقى المعاني الإنسانية للأب العطوف الحنون:

أولهما: الإسهام في الإنفاق من ماله الخاص لتسديد أجور الأساتذة الأجانب بالعملة الصعبة، فهو ينظر إلى الطلبة على أنهم أبناؤه، ومن ثم هو حريص على أن ينالوا حظهم الكافي من المعارف، ولو كلفه الأمر أن ينفق من ماله، فشأنه شأن الأب الذي يحرص على أن يستفيد أبناؤه من دروس الدعم، لكن مع فارق بين من يمارس الأبوة الضيقة في الحدود التي يفرضها النسب البيولوجي، وبين من يمارس الأبوة الرحبة في بعدها الأخلاقي والإنساني.

ثانيهما: تأثره الكبير بعد إعلان نتيجة مناقشة أولى رسائل الماجيستير يوم 06 جوان 1994 للباحثين؛ مسعود فلوسي وصالح بوبشيش، حيث قال حينها:" الحمد لله ليخرج ربي وجوهنا للضو كبروا ولادنا و نجحوا " هو شعور الأب الذي يحقق ذاته من خلال أبنائه، لأنه يرى أنه يمتد في الحياة من خلال هؤلاء الأبناء.

4) الوفاء لذكرى الشهداء:

في واقع الأمر استمرار قيم الثورة في مسيرة المجاهد الحاج لخضر بعد الاستقلال تعد في حد ذاتها وفاء منه لذكرى الشهداء ورسالتهم، لكن أود أن أعرض موقفا من مواقفه المؤثرة وهو يتحدث عن الشهداء؛ فقد وقف خطيبا بممرات الشهيد مصطفى بن بولعيد سنة 1963 وهو آنئذ عضو بالمجلس التأسيسي فقال: " انتصرت الجزائر وعاد المجاهدون إلى بيوتهم بين أهلهم وذويهم، فكيف يطيب لنا العيش في بيوتنا والجثامين الطاهرة للشهداء لا زالت في الشعاب والجبال والبراري، فلنعمل على جمع رفاه الشهداء في مقبرة خاصة بهم" ولأن الرجل يؤمن بالفعل قبل القول عمل على توفير قطعة أرضية لهذا الغرض كي تكون مقبرة للشهداء، ولا شك أن هذا التفكير وهذه اللفتة لها أثرها ودورها في تخليد ذكرى الشهداء واستدعاء حضورهم في ضمير الشعب ووجدانه.

خلاصة القول: إن سيرة المجاهد الحاج لخضر ارتبطت بما لا يمكن حصره من القيم والفضائل في بعدها الإنساني والوطني، هي قيم البذل، والتضحية، والوفاء، والإيثار، والجرأة، والشجاعة، والشهامة، ونصرة المظلوم، وإعانة المحتاج، وحب العلم، وتبجيل العلماء...هي قيم حين ارتبط بها كان مصداقا عمليا لاستمرار قيم الثورة، وكان رمزا تجاوز نطاق العائلة والعشيرة والمنطقة، فمن الظلم لهذا المجاهد الرمز أن ينظر إليه على أنه رمز لهذه المدينة فحسب، بل هو رمز لكل الجزائريين ولكل الأحرار والشرفاء.

ملاحظة: اعتمدت في إيراد بعض المعلومات التاريخية على روايات شفوية لبعض المجاهدين، ولبعض أفراد عائلة المجاهد الحاج لخضر، وبالأخص المرحوم اعبيدي احمنة.